أطفال يتحولون إلى أمراء في دقائق!

المشاهد الدموية وعسكرة الصغار "ماركة" مسجلة تجتاح الشارع

داخل الكراج طغت مشادة كلامية صاخبة بين سائقين على صور الفوضى المنتشرة فيه. كان كل منهما (كالعادة) يرى أنه أحق من الآخر في تسلسل سيارته بقائمة طابور السيارات، ودعوة الراكبين للصعود في سيارته، وحالما عجز حوارهما/ زعيقهما (في بضع ثوان لا غير) عن التوصل إلى أدنى درجة من التفاهم انتقل الصراع إلى الشتائم والسباب والعراك بالأيدي ثم إلى استخدام العصي (والبوريات والدرنفيسات والسكول صبانات)، وسرعان ما تخضب رأس أحدهما بالدماء، وتمزقت ثيابهما وسط صخب نداءات السائقين والباعة والشحاذين وأصوات منبهات السيارات، ضجيج مسعور صعق مسامع الناس المتوجهين إلى أعمالهم أو إلى قضاء حاجاتهم في ذلك الصباح (القتيل)، شأنه شأن أصباح (دموية صاخبة) لا تنتهي، وما زالت تتكرر في كل يوم.

□ بغداد/ عبد الكريم العبيدي

من داخل سيارة (كيا)

لكن صورة العنف لم تنته هناك في كراج السيارات حقا، فداخل سيارة (الكيا) حدثت مشادة كلامية جديدة بين السائق وأحد الراكبين بسبب ورقة نقدية من فئة مائتين وخمسين دينار (لا غير) ظل السائق يرى أنها (ما تمشي)، أي تالفة، بينما أصر الراكب على أنها عملة عراقية سليمة، وسرعان ما تحول حوارهما/ زعيقهما إلى شتائم وسباب، وكان أبرز ما يلفت الانتباه هو أن الراكب أقسم أنه سيضع (عبوة لاصقة) في سيارة السائق، بينما توعده السائق (بتفجير بيته) قبل غروب الشمس!

حازم (سي دي)

هكذا كان يلقبوه، وهي كنية لاقت استحسان ذلك الفتى النحيف على ما يبدو، وجعلته مميزا في أحد أسواق بيع الأقراص المدمجة المنتشرة على الأرصفة في عدد من أحياء بغداد، كان الإقبال واضحا على محله، أطفال يرغبون "بمراوسة" . استبدال الأقراص بأقراص أخرى . وآخرون يطلبون أفلاما جديدة، ويرددون أسماء بدت مألوفة عند حازم الذي راح يروج لهم أسماء أفلام حديثة مثل: (50 cent- splinter cell- kane and lynch الخ).

يافع كان يرتدي قبعة حمراء ويتباهى بوشم (مرعب) مطبوع على زنده رطن بباقة أفلام حديثة: (just cause- sniper- brother in arms). الوحيد من بين المتبضعين، كان رجلا في الستينيات من العمر سأل الصبي (صاحب الوشم المرعب) عن رطانة هذه الأسماء فأجابه باقتضاب، من دون أن يلتفت إليه: (هذه كلها أفلام رعب، أكشن، قتل ودم)، قالها وهو يلوح بقبضتيه في الهواء!

كان حازم يرقب المشهد الحواري القصير عن قرب، وكان على ما يبدو يدرك حالة طارئة كحالة الرجل العجوز الذي امتعض مما يرى ويسمع، فسعى حازم على الفور إلى (التخلص) من مشتر (ثقيل) فبادر وسأله عن نوع الأقراص التي يريدها؟

– أفلام عن الطيور والحيوانات والطبيعة، أفلام للأطفال.

حدج حازم الرجل بنظرة ممزوجة بابتسامة ساخرة ثم قفز نحو أقراص مركونة على رف ويعلوها الغبار وجلب حزمة منها وسلمها للعجوز، بينما همس أحد الفتية مردداً: (حييل اشكد قديم)!!

حازم، وبعد أن (أزاح العجوز القديم) عن محله أوضح لعملائه الصغار أن عددا كبيرا من أقراص الأفلام التي طلبها العجوز ينام عليها الغبار منذ شهور كونها لا تنتمي إلى أفلام العنف أو الرعب، وأن الكثير من الصغار يجلبون له أقراصا، اشتراها لهم آباؤهم من أمثال (صاحبنا) ليستبدلونها بأفلام العنف!، بل أن بعضهم يسخر من أبيه ويتندر على اختياره (الاستوك) الذي ما زال يحلم بشروق الشمس واستيقاظ الزهور وتحليق الفراشات في الحقول وصداقة الدببة مع الأطفال وأمواج دجلة والقوارب وطلعت يا محلى نورهه شمس الشميسه)!!

كان حازم يتحدث وسط قهقهات متعالية يطلقها الصغار على كل جملة/ نكتة كانت تخرج من فمه بصعوبة بسبب اختناقه هو أيضا بموجة ضحك على اختيارات العجوز المسكين.

صالات العنف

الطفولة في خطر حقا. ونادرا ما تجد الآن طفلا عراقيا "واقعيا" من بين كل مئة طفل "عنفوي"، والمحنة الأشد خطورة هي أن آباءهم وأمهاتهم، "ضحايا حروب العقود الماضية" مازالوا يمارسون لعبة تصدير هذه الثقافة الماضوية الساخنة إلى صغارهم، فانتقلت عدوى العنف إلى ألعابهم وهواياتهم. وراحوا يتهافتون على شراء الكثير من الأقراص الليزرية المليئة بمشاهد الرعب والدمار والخراب. في حين انتشرت في العديد من أحياء بغداد الشعبية صالات لممارسة ألعاب أجهزة الـ (أكس بوكس وألبلي ستيشن ٢)، لاستقطاب الأعداد الهائلة من الأطفال الباحثين عن مظاهر العنف.

الأطفال يدخلون إلى هذه الصالات صغارا. وبعد دقائق يتحولون إلى أمراء، وكل ما يحتاجه الواحد منهم هو أن (يقتل) عشرة مواطنين أبرياء بأسلحته المختلفة التي لا ينضب في مخازنها الرصاص طوال فترة الدست، فيتحول إلى أمير بنظر زملائه المحتشدين لمتابعة "جرائمه"، والذين كانوا يؤازرونه بالهتاف والمديح، ويثنون على بطولته في القتل والخطف والتدمير، التي جعلته أميرا بنظرهم، بعد تمكنه من قتل عشرة أشخاص، أو أميرا للأمراء بعد مقتل عشرين شخصا.

كان هذا المشهد الصاخب يتكرر في إحدى تلك الصالات، في كل نصف ساعة تقريبا، وكانت هتافات الأطفال وأهازيجهم تصل إلى أسماع المارة في الشارع.

أطفال العراق في محنة حقا. بعضهم لم يكتف على ما يبدو بآلاف المشاهد الدموية التي شاهدها على مدار الأعوام الماضية فراح يبحث عن المزيد منها في بعض المواقع الالكترونية داخل مقاهي الانترنت، لمشاهدة الأفلام التي لا تظهرها شاشات الفضائيات، ولكنها موجودة في بعض المواقع الالكترونية المتخصصة.

من "لكش" إلى بغداد

"واحسر تاه على ما أصاب لكش وكنوزها
ما أشد ما يعاني الأطفال من بؤس
أي مدينتي، متى تستبدلين بوحشتك أنسا".

هذا ليس مقطعا شعريا من أشعار الحداثة أو ما بعدها. فهو يعود إلى شاعر سومري، يرثي به مدينته على ما أصاب أطفالها من قسوة ودمار على أيدي "لوكال زاكيزي"، وقد عثر عليها في لوح طيني يعود تاريخه إلى العام "٢٣٦٥" قبل الميلاد.. تصوروا أن معاناة أطفال العراق من مظاهر العنف والقسوة مازالت مستمرة منذ آلاف السنين. وان هذا الشاعر السومري المجهول، قد أجابه على رثائه هذا وبعد آلاف السنين شاعر عراقي آخر هو ابن الرومي في رثاء أطفال مدينته "البصرة" عندما احترقت بيوتها ودمرت واستبيحت حرماتها في ثورة الزنج. وثمة شعراء عراقيون أجابوه أيضا في رثاء أطفال مدن بغداد والموصل والكوفة وكربلاء في فترات مختلفة.

أنها امتداد إذن لخلل عام في منظومتنا الفكرية، وهي انعكاس لعمق أخلاقنا الصحراوية العنيفة، في تعاملها مع الآخر، سواء داخل البيت أو المدرسة أو الشارع. وتعود جذورها إلى البيئة والخطابات الدينية والسياسية "القومية الشوفينية"، وعندما اقتلع غطاءها بسقوط النظام السابق، انتشرت هذه الفوضى وعم الفساد والخراب. علينا ألا ننسى أيضا سياسة عسكرة الطفولة في عهد النظام السابق وظهور ما يسمى بالطلائع والفتوة والأشبال. وعلينا ألا ننسى حروب النظام السابق التي أشبعت مخيلة الطفل العراقي بكل ما هو عدواني، حتى أن الطفل العراقي عاش حالة من التمزق والانقسام حين اجبروه في المدرسة على تمزيق صور (صدام) من كل كتبه المدرسية، بعد أن كان يحمله على صدره كرمز للعنف والقوة مثل صور رامبو وجا كي شان، ناهيك عن ما كان يقوم به صدام بنفسه من استخدام بندقية البرنو وإطلاق النار في ساحة الاحتفالات وفي زياراته إلى القرى والأرياف.

إن جذور هذا التوجه السلبي عند الأطفال العراقيين تعود إلى تفاعل الطفل مع بيئته وما تحويه من مظاهر العنف والقتل والرعب والعدوانية الشرسة، فبات لا يخشى الموت (!) لأنه يتفاعل معه يوميا في الأحياء والشوارع وعلى شاشات الفضائيات، كما أن التحذيرات اليومية التي يسمعها الطفل من أبيه وأمه بعدم الاقتراب من جميع الغرباء، لأنهم إما أن يكونوا لصوصا أو إرهابيين تجعل الطفل يشعر وكأنه يعيش في وسط عدواني عنيف، يحيط به الرعب من كل جانب، فيصبح لزاما عليه أن يقاتل هذا الواقع العدواني المفترض بعدوانية مشابهة له وبإرهاب يوازي الإرهاب الذي يهدده.

صالات بالجملة ومن غير رقابة

مصباح ليلي بثلاثة آلاف دولار!

الشوارع تتحدث: إنارة الطاقة الشمسية خجولة

□ بغداد/ فرات إبراهيم

حينما كانت بغداد تغط في ظلام دامس بواقع غياب الاختراع والتقنية الكهربائية، كانت بعض الأفكار تقلل من هذه الحلكة، فقد كانت فوانيس الزيت في اغلب شوارع بغداد تضيء دروبها الضيقة والمعتمة، وكان يناب لهذا الأمر إما حارس الليل أو شخص آخر يقوم بإشعالها وإطفائها في أوقات معينة ومع قدوم الأيام وحدوث النهضة الصناعية في أوروبا شمل هذا الأمر متأخرا دول الشرق الأوسط والمحيط العربي الذي كان يتغنى بأمجاد أسلافه العظماء ويترنح أبناؤه ليلاً على أصوات نشيد العروبة، وصلت الكهرباء إلى بغداد وتمت إضاءة شوارعها لأول مرة في ١/ ١٠ /١٩١٧، حين قامت مصلحة الإشغال العسكرية البريطانية بنصب أول ماكنة للكهرباء قرب بناية القشلة ،وكانت تهدف إلى إنارة شارع السراي وبنايات القشلة والمستشفيات، والمستشفى المركزي البريطاني في (باب المعظم) ،ونصبت أخرى مثلها في شريعة المجيدية لإيصال الضوء إلى جميع المستشفيات الموجودة خارج باب المعظم وكلاهما من درجة ٢٢٠ فولت، تكفي كل واحدة منها لإضاءة ألف مصباح تقريباً حتى وصل الأمر ببعض المشعوذين إلى تسمية هذا الاختراع العظيم بأفعال الشيطان، الفوانيس وقد ركنت جانبا مع قدوم الكهرباء فإن أول من عاد أمجادها وقوة فعلها هم العراقيون بفعل الحروب والحصار ويا حوم اتبع لو جرينا ، فصارت الفوانيس تنتج في الصين بكثافة وتخصص إلى العراقيين في محنتهم، وكان الصين بلدا يقرأ ما في عقول العراقيين ، ومع كل التقنيات الحديثة وتحول العالم اجمع إلى الكهرباء النووية فان وزارة الكهرباء عندنا وجدت حلا موقتاً لمشكلة إنارة الشوارع من خلال استذكار ماضي الفوانيس ولكن هذه المرة من غير كاز أو نفط وإنما على الطاقة الشمسية وكي لا يقال بأننا شعب متخلف فقد ارتأت الوزارة أن تضع شروطا جديدة لفوانيس القرن الحادي والعشرين، وبدلا من تعليقه في البيوت، تم تعليقه في الشوارع العامة وبإشراف مقاولين لا يخشون في الحق لومة لائم وعملت الفوانيس الجديدة، وأنارت نفسها فقط وبدت مغرية لمصوري الصحف والمعارض بسبب برودة ضوئها الذي لا يمنحك شيئا من الإنارة سوى لنفسه فقط.

في شوارع بغداد الرئيسة

في شارع السعدون والرشيد وأبي نؤاس وفي مدن مكتظة بالسكان مثل مدينة الكاظمية ومدينة الصدر والشعلة، كان تواجد هذه الفوانيس بقوة وقد أصبحت ظاهرة تلفت الانتباه بسبب ضوئها الخافت والذي لا يشكل أكثر من ٦٠ واط، وتخيلوا أن مصباح البيت العادي هو ٨٠ واط ،فأي مهزلة هذه التي لا يغني فيها عن فعل الكهرباء شيء ، يقول ابو سعيد وهو صاحب "سوبر ماركت" بأنه يشغل مولدته بعد انقطاع الكهرباء لان الشارع يصبح مظلما وان إضاءة هذه الفوانيس مضحكة وغريبة فهي أشبه بالشموع المشتعلة، وذكر بان الطاقة الشمسية لها فعل كبير وانه شاهد فعلها في دول زارها ولكن ما يحدث هنا أمر معيب، وتساءل ما الجدوى من كل هذا إذا كانت هذه الإضاءة لا تفي بالغرض وقال بأنه ربط مولدته ببعض خطوط الإضاءة ليساعد الناس في تلمس طرقهم وما بين قول أبو سعيد وشخص آخر اخترق الحوار شخص بين الجموع بعبارة (ضحكوا علينا وجابولنا هذا العمود اللي سعره ٣٠٠٠ دولار ضواه جنه ضوه فانوس ، ضحكوا علينا واخذوا هالفلوس)، دوت ضحكة عالية من كل المتجمهرين حولنا والذين كان رأيهم لا يختلف عن رأي أبو سعيد أو صاحبه، ثم أطلق آخر جملة تهكمية قائلا:(المفروض من الدولة بدل ما تذهب هذه الأموال الكثيرة إلى الطاقة الشمسية أن ترفد الطاقة الرئيسة بالكهرباء لكانت أجدى بالمواطن وأكثر وأعم فائدة).

الاختصاص يتكلم

كالعادة وقبل أن نتوجه بسؤالنا إلى أي مسؤول في وزارة الكهرباء يلازمنا الخوف من التعقيدات الروتينية والموافقات الرسمية وعدم الحديث إلا بكتاب من جهات عليا، لهذا توجهنا الى أصحاب الاختصاص وبالأخص منهم محال بيع الأدوات الكهربائية وأصحاب محال بيع الكابولات والنضائد الشمسية، حميد الطائي يعمل في نصب منظومات الطاقة الشمسية يقول: أنا اعمل الآن في مجال نصب منظومات الإنارة بالطاقة الشمسية في بغداد، والأسعار التي لدينا تختلف إلى حد ما من حيث أننا لا نستخدم عمودا بارتفاع ٩ أمتار بل ٥ او ٧ أمتار، وفي حالة استخدامنا للأعمدة المنصوبة أصلا من قبل وزارة الكهرباء ذات ارتفاع من ٩ الى ١١ مترا، فإننا ننصب الخلية والبطارية بارتفاع ٧ امتار، وننزل إلى ارتفاع ٥ أو ٤ أمتار ، لنصب مصباح ذي طاقة تتراوح ما بين ٦٦ واط و٩١ واط، وسعرهما بين ٥٠٠ دولار و٧٠٠ دولار، والعمود عادة يكون تركي المنشأ، ويستورد بـ ٣٠٠ دولار، والخلية ذات ١٧٥واط بـ ٧٠٠ دولار، على اعتبار أن سعر الواط الواحد هو ٤ دولارات، مع كلفة الشحن طبعا هذا الصيني، أما البطاريات فنستخدم ١٢٠ أمبير للواحدة، أما الشاحن فهو ألماني بسعر ١٥٠ دولارا تقريبا، والصندوق رخيص لا يكلف ٥٠ دولارا تقريبا، فاتني ذكر سعر الحمالة وعادة يكون صنعها محليا ولا تكلف ٢٠ دولارا .

أما من ناحية العمل فتبين أنها لا تعمل أكثر من ٨ ساعات في اليوم والسبب هو حاجتنا لخلية ٢٣٠ واط كي تستطيع أن تشحن البطاريات بالتزامن نفسه يوميا وبمعدل عمل يصل إلى ١٢ ساعة تقريبا، طبعا لمصباح ٦٦ واط، وتلك هي المشكلة التي وقعنا بها في العراق لذلك اضطرت اللجنة المشرفة عليها أن تقلل ساعات العمل إلى ٨ ساعات في اليوم للأسف .

وبالتأكيد هي برأيي مجدية جدا لكن قوانينها قاسية ويجب الالتزام بها تماما وهي مفيدة جدا في الطرق الخارجية خصوصا إن كانت مدعومة بمروحة تعمل ليلا ونهارا حسب قوة الرياح كعامل مساعد .

٢٠٠٠ دولار قيمة المصباح الشمسي مع نصبه أي ما يعادل مليونين وخمسمائة ألف دينار، ولنتخيل الرقم مضروبا في عدد الشوارع وطولها وعدد أعمدة المصابيح الشمسية يعني شارع فيه مئة مصباح يساوي ثمن عمل المصابيح فيه ٢٥٠ مليونا فقط .

حسبة بسيطة

مولدة تصنيع محلي بقدرة ١٢٠ أمبير، علما انه كل أمبير يشغل ثلاثة مصابيح شمسية ،ولدى ضرب هذين العددين نحصل على تشغيل ٣٦٠ مصباحا لعدد كبير من الشوارع و٣٦٠ مصباحا، وبحسبة الوزارة والحكومة تعني مليار دينار عراقي حسب ما ذكر من أسعار بأن المصباح الشمسي يكلف ثلاثة ملايين دينار ، المولدة العراقية التي تحدثنا عنها تكلف ثلاثة ملايين دينار ولكي تعمل لمدة ثماني ساعات متواصلة فإنها بحاجة إلى ٣٠ لترا من الكاز يوميا وبحسبة بسيطة فإن سعر لتر الكاز يعادل ٤٥٠ دينارا، فإن مجموع ما تستهلكه هو ١٥ ألف دينار يوميا مع سعرها يصبح المجموع ثلاثة ملايين وخمسة عشر ألف دينار، وهذا الأمر يتطلب مشغلين اثنين يتناوبان في عملهما، راتب كل واحد منهما الشهري سبعمائة ألف دينار، أي أن يومية الاثنين مجتمعة تكون خمسين ألف دينار ليصبح المجموع ثلاثة ملايين وخمسة وستين ألف دينار فقط ويكون التشغيل اليومي للمصابيح لا يتجاوز الـ ٦٥ ألف دينار يوميا، بينما تشغيل المصابيح الشمسية يحتاج الى مليار دينار.

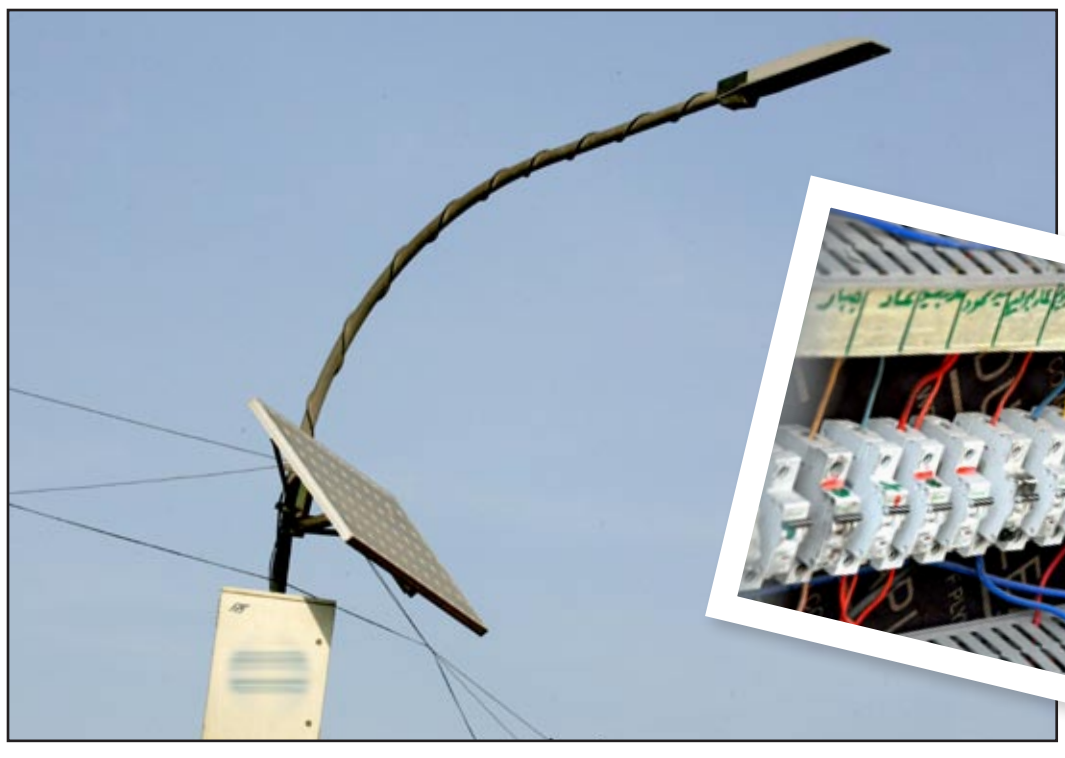

مصباح من غير نور.. تصوير/ محمود رؤوف